

من التعاطي إلى إدمان المخدرات: تحليل سوسيولوجي لتحويلات المعنى والسلوك الاجتماعي

From Substance Use to Drug Addiction: A Sociological Analysis of Transformations in Meaning and Social Behavior

فيروز مامي زرارقة *

مخبر المجتمع الجزائري المعاصر

مجامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

f.zerarga@univ-setif2.dz

تاريخ القبول: 2026-02-23

تاريخ الاستلام: 2026-01-14

ملخص: تعد ظاهرة إدمان المخدرات من أبرز الإشكالات الاجتماعية المعاصرة التي تعكس تحولات عميقة في معانيها ومساراتها، لا سيما في المجتمعات التي تعرف تغيرات اجتماعية وثقافية متسارعة مثل المجتمع الجزائري، ويشير مفهوم المخدرات هنا إلى المواد الكيميائية أو الطبيعية التي تستخدم لإحداث تغييرات في الحالة النفسية أو الجسدية للفرد، والتي تتراوح آثارها من الاستخدام التجريبي إلى الاعتماد القهري، بما يؤدي إلى فقدان السيطرة على السلوك، كما ويرتبط التحول من التعاطي كممارسة عابرة أو مقبولة اجتماعيا إلى إدمان المخدرات بمجموعة من العوامل البنيوية والثقافية، من بينها ضعف آليات الضبط الاجتماعي، هشاشة الروابط الأسرية، تحولات القيم، وتغير تمثيلات المخاطر لدى مختلف الفئات، وخصوصا الشباب.

وتروم هذه الورقة البحثية إلى، تقديم قراءة سوسيولوجية تحليلية لمسار التحول من التعاطي إلى الإدمان، من خلال دراسة كيف تتغير معاني التعاطي وسلوكياته داخل السياق الاجتماعي الجزائري من فعل قابل للتطبيع الاجتماعي إلى سلوك إدماني يصنف ضمن الانحراف الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: الإدمان؛ التعاطي، الانحراف الاجتماعي؛ المخدرات؛ السلوك المنحرف.

The phenomenon of drug addiction is among the most prominent contemporary social issues, reflecting profound transformations in its meanings and trajectories, especially in societies experiencing rapid social and cultural changes, such as Algerian society. Here, the concept of drugs refers to chemical or natural substances used to induce changes in an individual's psychological or physical state, with effects ranging from experimental use to compulsive dependence, leading to a loss of control over behavior. The transition from substance use as a temporary or socially acceptable practice to drug addiction is associated with a set of structural and cultural factors, including weak social control mechanisms, fragile family bonds, shifting values, and changing perceptions of risk across different groups, particularly among youth.

This study aims to provide a sociological analytical reading of the process of transition from substance use to addiction, examining how the meanings of use and related behaviors evolve within the Algerian social context, from practices that can be socially normalized to addictive behaviors categorized as social deviance.

Keywords: Addiction, Substance Use, Social Deviance, Drug, Deviant Behavior.

مقدمة:

تعد ظاهرة الإدمان من أبرز الظواهر الاجتماعية المعاصرة التي تشكل تحدياً كبيراً للباحثين في العلوم الاجتماعية، نظراً لتعقيدها وتداخل أبعادها الثقافية والنفسية والاجتماعية، ويتميز المجتمع الجزائري في هذا السياق بمروره بتحولات اجتماعية وثقافية متسارعة إثر العولمة والتحول الرقمي، مما أدى إلى إعادة تشكيل العديد من المعاني الاجتماعية المرتبطة بالممارسات اليومية للفرد والجماعة، كما أن ظاهرة الإدمان على المخدرات ليست مجرد سلوك فردي، بل هو حالة مركبة تؤثر في الفرد والمجتمع على حد سواء، وقد تطور فهمها عبر العقود وصولاً إلى أنظمة تصنيفية معيارية مثل الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية والتصنيف الدولي للأمراض، مما ساعد على توضيح مفهوم الإدمان وتحديد معايير التشخيصية بدقة أكبر.

كما تكتسب دراسة التحول من التعاطي إلى الإدمان أهمية بالغة ليس فقط باعتبار الإدمان حالة صحية أو نفسية، بل باعتباره مساراً اجتماعياً وانحرافياً، يعكس تفاعلات معقدة بين الفرد والمجتمع، حيث تتداخل العوامل البنيوية والثقافية في تحديد هذا المسار، فمن جهة تؤثر هشاشة الروابط الاجتماعية والاسرية وتغير القيم ومؤسسات الضبط الاجتماعي على طبيعة التعاطي وتطوره، ومن جهة أخرى تسهم التغيرات في تمثيلات المخاطر لدى الشباب في إعادة تشكيل معاني هذه الممارسة وتحويلها إلى سلوك قهري منحرف.

وتتيح المقاربة السوسيولوجية لهذه الظاهرة قراءة التحولات في المعنى والسلوك كمسار ديناميكي يعكس الواقع الاجتماعي المتغير، وتستند إلى إطار نظري يجمع بين نظرية الوصم الاجتماعي ونظرية اللامعيارية ونظرية التعلم الاجتماعي لفهم كيفية إنتاج الإدمان كنسق سلوكي منحرف، كما نحاول تقديم مقارنة وقائية تراعي البعد الاجتماعي والثقافي للإدمان، وتؤكد على ضرورة تجاوز الرؤية الجزئية التقليدية نحو استراتيجيات أكثر شمولية تعزز الاندماج الاجتماعي وتحد من الانحراف، من خلال تقديم فهم أعمق لسيروية التحول من التعاطي إلى الإدمان في سياق جزائري يعكس التحديات المعاصرة والأبعاد المتعددة للانحراف الاجتماعي.

أولاً. التعاطي والإدمان في الأدبيات السوسيولوجية: تحليل مفاهيمي

تعد ظاهرة التعاطي والإدمان من أبرز القضايا الاجتماعية المعاصرة التي تحظى باهتمام واسع في علم الاجتماع، نظراً لما تعكسه من تحولات في السلوكيات والقيم الفردية والاجتماعية داخل المجتمعات، فهي لا تمثل مجرد سلوك فردي، بل تعبير عن تفاعل معقد بين الفرد والمحيط الاجتماعي والثقافي، بما يشمل الأسرة، الأصدقاء، والمؤسسات المجتمعية.

1. التعاطي: مفهوم سوسيولوجي متعدد الأبعاد

يستخدم مصطلح التعاطي في اللغة العربية للدلالة على الأخذ بفعل شيء أو مناولته أو التعامل معه، وهو المعنى الأساسي للفعل تعاطى ومصدره، قبل أن تتسع دلالاته لتشمل السياقات الاجتماعية والنفسية.

والإدمان مشتق من الفعل "أدمن"، ويقال "أدمن الشيء": لازمه وعكف عليه واستمر عليه (عمر، أحمد مختار، 2008)، وفي السياق الطبي والاجتماعي، هو حالة من التعود القهري على مادة معينة بحيث يضطرب كيان الفرد إذا انقطع عنها.

فالتعاطي هو الأخذ بفعل شيء أو مناولته أو التعامل معه، فهو في أصله يدل على فعل المناولة والتعامل بين الأشخاص، قبل أن يتم توسيع دلالاته اصطلاحاً في العلوم الاجتماعية ليشمل الاستخدام المتكرر للمواد النفسية أو المخدرة في سياقات اجتماعية معينة، هذا الامتداد الدلالي من الأصل اللغوي إلى الاستخدام الاجتماعي ينبع من فهم سوسيولوجي يرى أن السلوكيات البشرية تفسر في ضوء العلاقات الاجتماعية والضوابط الثقافية التي تحدد معنى الفعل والدوافع المحيطة به.

وبناء على هذا المعنى اللغوي يمكن فهم التعاطي في السياق الاجتماعي كسلوك يتفاعل مع القيم والعلاقات والضوابط المجتمعية، فالتحليل السوسيولوجي يرى أن التعاطي قد يمثل في بعض الأوساط مرحلة تجريبية أو بحثاً عن الهوية والانتماء ضمن الجماعة المرجعية، حيث يتعلم الفرد من خلال الملاحظة والتقليد، ما يجعل هذا السلوك محاطاً بأبعاد اجتماعية وثقافية متعددة تتجاوز مجرد استخدام المادة لتشمل تأثيراتها على الشبكات الاجتماعية، القيم المتغيرة، والتوازن بين الحرية الفردية والضوابط الاجتماعية.

ويشير التعاطي إلى الاستخدام المتكرر أو العرضي للمواد النفسية أو المخدرة دون أن يكون مصحوباً بفقدان السيطرة عليها أو باضطراب قهري، وهو سلوك اجتماعي يتحدد بدلالاته داخل السياق الاجتماعي والقيمي للجماعة التي يمارسها الفرد (جاووت، 2022).

هذا ويذهب بعض الباحثين إلى القول أن التعاطي يمكن أن يكون سلوكاً تجريبي مرتبط بالبحث عن الهوية والانتماء في المجموعات الاجتماعية، خصوصاً لدى الشباب وهو ما يجعله منحرفاً أو مدان سلوكياً في المرحلة الأولى (حجاج، 2021)، ومنهم من يرى أن التعاطي لا يمكن فهمه بمعزل عن العلاقات الاجتماعية وعمليات التعلم الاجتماعي التي يتعلم من خلالها الفرد السلوكيات من الجماعات المرجعية، مما يجعله ظاهرة اجتماعية وثقافية قبل أن تكون فرداً (Shaw, 2002).

بالتالي التعاطي لغويا يعني المناولة والتعامل، واصطلاحيا يشير الى الاستخدام الاجتماعي المبدئي للمواد النفسية او المخدرة ضمن سياق اجتماعي محدد يمكن ان يتغير مع مرور الوقت وتداخل العوامل الاجتماعية.

2. الإدمان على المخدرات: من التعريف اللغوي إلى التفسير الاجتماعي

الإدمان على المخدرات يمثل ظاهرة اجتماعية متعددة الأبعاد تجمع بين الاعتماد النفسي والجسدي على المواد المخدرة، ويفهم في سياق أوسع من الأثر الفسيولوجي البحث، إذ تتفاعل فيه العلاقات الاجتماعية، التصورات الثقافية، والضغوط المجتمعية التي تعيد تشكيل معنى السلوك ودوره داخل النسيج الاجتماعي. ومن هذا المنظور لا ينظر إلى الإدمان على أنه مجرد سلوك فردي معزول، بل كنتاج لتفاعلات اجتماعية معقدة تتشابك فيها القيم، الضوابط، والهياكل الثقافية، مما يحدد ما إذا كان التعاطي يصنف كسلوك منحرف أو يظل مقبولا ضمن معايير المجتمع.

ويشير مصطلح الإدمان إلى الاعتياد الشديد على فعل شيء ما بحيث يصبح الفرد غير قادر على الاستغناء عنه، وهو مشتق من الفعل "أدمن"، الذي يعني التعود المستمر على شيء، سواء كان عادة أو فعل (المعجم الوسيط، 2000)، كما أنه الاعتياد والإقبال المستمر على ممارسة شيء أو استخدام مادة معينة إلى درجة يصبح معها من الصعب الانقطاع عنها.

ويتضمن مفهوم الإدمان دلالة الاعتياد الشديد على فعل أو مادة بحيث يصعب الانفصال عنها، وهو امتداد لاتجاه الإنسان نحو الاعتماد على شيء ما بسبب تأثيره المريح أو المهدئ أو المنشط، قبل أن تضفي عليه الدلالات العلمية في الدراسات النفسية والطبية

وفي المنظور السوسيولوجي ينظر إلى الإدمان على المخدرات كسلوك اجتماعي معقد يتجاوز العوامل الفردية البحتة ليشمل التفاعلات مع الأسرة، الجماعة، والمؤسسات الاجتماعية، فالإدمان لا يفهم فقط كنتيجة للتغيرات الكيميائية في الدماغ، بل كظاهرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالسياق الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه الفرد، حيث تتداخل القيم، الضوابط الاجتماعية، والتمثيلات المجتمعية للمخاطر في تحديد مدى انتشار الإدمان وأنماط تطوره داخل المجتمع (جدي فؤاد، بورزق نوار، 2024)، فالإدمان هنا يمثل نتاجا لتفاعلات متعددة المستويات تشمل الأسرة، الجماعة، والمؤسسات الاجتماعية، بما يجعل السلوك الإدماني ظاهرة اجتماعية متشابكة تتأثر بالهيكل الاجتماعي والثقافي المحيط بالفرد، وهو ما يدل أن الفرد لا يصبح مدمنا بمعزل عن سياقه الاجتماعي، إذ تتفاعل مجموعة من العوامل لتحديد احتمالية انجراف الفرد نحو التعاطي المستمر وتحويله إلى إدمان.

بناء على ما سبق، تظهر الدراسات أن الإدمان على المخدرات يرتبط بتفاعلات بين الأفراد وبيئاتهم الاجتماعية، بما في ذلك شبكات العلاقات الأسرية، الجماعية، والتأثيرات الثقافية التي تعمل على إعادة تشكيل معنى السلوك وتحديد كسلوك منحرف أو مقبول ضمن معايير المجتمع (مفتاح حسن، 2016) إذا يفهم الإدمان على المخدرات في المقاربة السوسيولوجية باعتباره ممارسة اجتماعية مركبة لا يمكن اختزالها في بعدها البيولوجي أو في التأثيرات العصبية للمواد المخدرة فحسب، بل يتجاوز ذلك ليعكس شبكة معقدة من التفاعلات بين الفرد ومحيطه الاجتماعي، فالإدمان لا ينشأ بوصفه سلوكا فرديا معزولا، وإنما يتشكل ضمن سياقات اجتماعية وثقافية وبنوية محددة، تتداخل فيها أدوار الأسرة، والجماعة المرجعية، والمؤسسات الاجتماعية، بما يسهم في إنتاج هذا السلوك واستدامته، وبهذا المعنى، يصبح الإدمان نتاجا لسيرورات اجتماعية تتفاعل فيها القيم، أنماط التنشئة، والضوابط الاجتماعية، لتحديد مسارات السلوك الإدماني وحدوده داخل البناء الاجتماعي العام، "يعني الاعتماد الشديد على المواد المخدرة بحيث يصبح التعاطي ضرورة قهرية يحكم السلوك اليومي للفرد، ويؤدي إلى تغير في أدواره الاجتماعية وعلاقاته الأسرية والمهنية، إضافة إلى أنه غالبا ما ينظر إليه كحالة من الانحراف الاجتماعي عندما يتجاوز حدود القيم والمعايير المقبولة في المجتمع (شاورة، بوروح، 1994)، ويظهر هذا البعد التفاعلي بوضوح في التركيز على دور الأسرة والجماعة والمؤسسات الاجتماعية في تشكيل السلوك الإدماني، فالأسرة باعتبارها أول إطار للتنشئة الاجتماعية تسهم إما في الوقاية من التعاطي أو في تهيئة شروطه، خاصة في حالات ضعف الرقابة الأسرية، اختلال الأدوار، أو غياب التواصل القيمي، أما الجماعات المرجعية وعلى رأسها جماعات الأقران فتؤدي دورا حاسما في إعادة تعريف التعاطي، حيث قد يتحول من سلوك مرفوض إلى ممارسة عادية أو حتى مرغوبة داخل بعض الأوساط الاجتماعية، وهو ما يفسر انتقاله التدريجي إلى إدمان قهري.

وهو ما يحيلنا إلى القول أن الإدمان مرتبط بمظاهر تفكك اجتماعي وثقافي في المجتمع الجزائري، حيث يؤدي التغير في نمط الحياة، ضعف الرقابة الاجتماعية، والتغيرات القيمية إلى خلق بيئات يمكن أن تتبنى أو تسمح بتكرار سلوكيات التعاطي التي تتطور لاحقا إلى إدمان (جمال بن دينية، عبد الاله بن شرقي، 2023)، خاصة في ظل التغير السريع في أنماط العيش، توسع الفضاءات الرقمية، وتبدل تمثيلات المخاطر لدى فئات واسعة من الشباب، فالمخدرات لم تعد ينظر إليها دائما كخطر مطلق بل أصبحت في بعض الخطابات والممارسات جزءا من أنماط استهلاكية أو رمزية مرتبطة بالهروب من الضغوط الاجتماعية، أو البحث عن الاعتراف داخل الجماعة، وهنا يتضح أن الإدمان ليس فقط سلوكا منحرفا وإنما ممارسة تحمل معاني اجتماعية تتغير بتغير السياق.

ومن هذا المنطلق، يمكن القول أن الإدمان على المخدرات يعكس تداخلا بين البنية الاجتماعية والثقافة والفاعلية الفردية، حيث تتحدد مساراته من خلال علاقة الفرد بمحيطه الاجتماعي، وليس بمعزل عنه. فالإدمان يصبح مرآة للظروف الاجتماعية السائدة، ومؤشرا على اختلالات أعمق في أنساق التنشئة الاجتماعية، الضبط، والاندماج الاجتماعي، وهو ما يفرض على التحليل السوسيولوجي تجاوز التفسير السببي البسيط واعتماد قراءة تركيبية تفهم الإدمان كسيرورة اجتماعية تتشكل عبر الزمن داخل بنية اجتماعية متغيرة.

ثانيا. التحليل السوسيولوجي لظاهرة التعاطي والإدمان كممارسات اجتماعية

تعد ظاهرة التعاطي والإدمان على المخدرات من أبرز القضايا الاجتماعية المعاصرة التي تثير اهتمام الباحثين في علم الاجتماع، ليس فقط لما لها من أبعاد صحية أو نفسية، بل لما تحمله من دلالات اجتماعية وثقافية عميقة، فالإدمان لا يفهم فقط كنتيجة لاعتماد كيميائي أو نفسي، وإنما كظاهرة تنشأ وتتطور ضمن سياق اجتماعي وثقافي محدد حيث تتداخل القيم، الضوابط الاجتماعية، والتمثيلات المجتمعية للمخاطر في إعادة تشكيل معنى السلوك وتحديد مدى قبوله أو انحرافه داخل المجتمع.

1. التعاطي والإدمان كممارسات اجتماعية

التعاطي والإدمان نتاج لعمليات اجتماعية متداخلة داخل مجموعة من العوامل البنيوية والثقافية التي تفرزها البنية الاجتماعية للمجتمع، ولا يمكن اختزالهما في سلوك فردي محض، فالأفعال المتعلقة بتعاطي المخدرات وإدمانها تفهم في إطار العلاقات الاجتماعية، القيم المشتركة، والتفاعلات الجماعية التي تتشكل عبر الزمن داخل المجتمع (جاووت، 2022)، هذا المنظور يجعل من الإدمان تعبيرا عن اختلال بين الفرد والضوابط الاجتماعية وليس مجرد اضطراب نفسي أو قرار فردي.

فالتعاطي عادة يبدأ كتجربة مرتبطة بالانتماء الاجتماعي، لكنه يتحول إلى إدمان عندما تتخلى الجماعات المرجعية والمحيط الاجتماعي عن ضوابطها وتوقعاتها، مما يسمح بتكريس السلوك وتعميمه داخل البنية الاجتماعية، وهو يشير إلى أن الديناميات الجماعية تلعب دورا حاسما في تحويل السلوك من تجربة إلى اعتماد قهري. (Nefidsa ; Boutaani, 2021)، هذه الرؤية تتجاوز النظرة الفردية للإدمان وتربطه بتنشئة اجتماعية تربية وقيمية، حيث أن الجماعات المرجعية مثل أصدقاء المراهقين وزملاء العمل، يمكن أن تكون محفزات للاندماج في التعاطي، خصوصا إن لم تكن هناك ضوابط ثقافية قوية ضد السلوك، ولا يمكن فهم الإدمان بمعزل عن العلاقات الاجتماعية المؤسسية التي تحدد ما إذا كان السلوك ينظر إليه على أنه منحرف أو مقبول، فالمدمن يصبح موضوعا لوصم اجتماعي نتيجة

تركيب اجتماعي ثقافي يقوم على تصنيف السلوك وشروطه الاجتماعية (حمري، أمال، 2019)، وهو ما يقوض الرؤية البيولوجية البحتة للإدمان، ويضعه في سياق التصنيف الاجتماعي للانحراف، حيث لا يتعلق الإدمان بما يحدث داخل النفس الفردية، وإنما بما يوجه المجتمع من تصنيفات وقيم.

ويقودنا هذا التحليل إلى الحديث عن الأسرة كمؤسسة اجتماعية تلعب دوراً أساسياً في إنتاج أو مقاومة السلوك الإدماني، فضعف التواصل الأسري وغياب الرقابة الأبوية وارتفاع معدلات التوتر بين أفراد الأسرة يمكن أن يؤدي إلى زيادة فرص انجراف الأبناء نحو التعاطي، وذلك لأن الأسرة لا تؤدي وظائفها الاجتماعية الكلاسيكية في الضبط والتنشئة الأخلاقية، فالسياق المنزلي ليس بيئة عابرة للسلوك، بل مؤسسة تحدد بشكل كبير ما إذا كانت ممارسات التعاطي تستقبل على أنها مسارات سليمة أو مسارات منحرفة تكسب طابع الإدمان، أما المؤسسات التعليمية والمجتمعية، فإنها تمثل فضاءات ثانوية للضبط الاجتماعي، لأن ضعف الاندماج المدرسي أو الشعور بالإقصاء أو عدم تقدير الأدوار الاجتماعية للطلاب، قد يدفع الأفراد نحو محاولة تعويض هذا الفراغ النفسي والاجتماعي عبر الانخراط في شبكات تعاطي، وتكرار هذا السلوك يمكن أن يتبدل إلى اعتماد قهري، فالتربية والاندماج الاجتماعي مرتبطان بشكل مباشر بمعدلات التعاطي لدى الشباب، فالمؤسسات الاجتماعية ليست مجرد وسطاء اجتماعيين، فهي هي محطات تنتج أو تعيق أنماط السلوك الانحرافي، إلى جانب أن التنشئة الأسرية تلعب دوراً حاسماً في توجيه السلوك الاجتماعي لدى الأبناء، حيث أن البيئات الأسرية التي تتسم بضعف التواصل أو غياب الرقابة الأخلاقية تنتج سلوكيات منحرفة مثل العنف أو الانحراف الاجتماعي العام، وهو ما يستدعي النظر إلى السلوكيات مثل التعاطي والإدمان كجزء من نفس المنظومة الاجتماعية المتأثرة بوظائف الأسرة (دريوش، 2022).

وفي السياق الثقافي تبرز أهمية التغيرات القيمية والتحولات الثقافية الناجمة عن العولمة تتسبب في تمرير رسائل ثقافية متعددة حول المخدرات في الفضاء الإعلامي والثقافي، مما يؤدي إلى تمييز معنى الخطورة في عيون الشباب، وهذا بدوره يضعف الضوابط الاجتماعية غير الرسمية ويحفز على الإدمان ويبين أهمية الثقافة الإعلامية والتحولات القيمية في إنتاج الإدمان والتي تعيد تشكيل معنى السلوك وتوزع قيمته.

فالتعاطي والإدمان ليسا نتيجة لميل نفسي فردي، بل هما منتجان اجتماعيان يتداخل فيهما التاريخ الثقافي الظروف الاقتصادية، العلاقات الأسرية، والتفاعلات الجماعية، وعندما تغيب الضوابط القيمية أو تضعف تصبح الممارسة الإدمانية مكرسة، مما يجعل المجتمع ككل شريكاً في إنتاج هذا الشكل من الانحراف الاجتماعي.

2. الإدمان والتعاطي في النظريات الاجتماعية

يعتبر التعاطي والإدمان على المخدرات من المفاهيم الأكثر تداولاً في النظريات السوسيولوجية خاصة الوظيفية منها حيث توضع هذه الظاهرة في سياق العلاقات الاجتماعية والبنى الثقافية والمؤسساتية بدلاً من اقتصرها على تفسير فردي أو طبي، فالنظريات الاجتماعية توضح كيف تتفاعل الضغوط البنيوية والثقافية لتشكيل سلوك الإدمان داخل المجتمع، وكيف يرتبط التعاطي بعمليات اجتماعية أوسع مثل التغير الاجتماعي، الضغوط الاقتصادية، التفكك الاجتماعي والتفاعلات الجماعية، مما يساعد على فهم أعمق لطبيعة الإدمان ومساراته داخل المجتمع ككل.

1.2 النظرية اللامعيارية

تنطلق النظرية اللامعيارية من فكرة أساسية مفادها أن المجتمع يعتمد على شبكة من القيم والمعايير الثقافية التي تحدد الأهداف الاجتماعية المقبولة والطرق المشروعة لتحقيقها، عندما تصبح هذه القيم غير واضحة أو عندما يفشل المجتمع في تزويد أفرادها بالوسائل المناسبة لتحقيق هذه الأهداف، تظهر حالة من اللامعيارية أو الانحلال الجزئي للمعايير الاجتماعية، مما يخلق توتراً اجتماعياً ونفسياً لدى الأفراد.

يعتبر دوركايم أول من صاغ مفهوم اللامعيارية في تحليله للانتحار، حيث ربط بين اختلال الضوابط الاجتماعية والشعور بالاغتراب، وهو ما يمكن توسيعه لفهم سلوكيات الإدمان، فالإدمان هو استجابة اجتماعية لضغوط اللامعيارية في المجتمع، حيث يجد الفرد نفسه أمام توقعات ثقافية قوية مثل النجاح أو الرفاهية، بينما تكون الوسائل القانونية والاجتماعية لتحقيق هذه التوقعات محدودة أو غير متاحة. (Durkheim, 1897; Merton, 1938)

في هذا السياق، يمكن تفسير الإدمان على المخدرات باعتباره وسيلة فردية وجماعية للتكيف مع الفجوات بين الأهداف والوسائل، فعندما يشعر الشباب أو الفئات الهامشية بعدم قدرتهم على تحقيق أهدافهم بالطرق المقبولة اجتماعياً، قد يلجؤون إلى المخدرات كآلية للهروب من الضغوط أو كوسيلة لإعادة إنتاج الهوية الاجتماعية، وهو ما يتيح الربط بين العوامل البنيوية مثل الفقر، ضعف الضوابط الأسرية، وعدم تكافؤ الفرص، وبين التحولات الثقافية والاجتماعية التي تعيشها المجتمعات الحديثة، بما فيها المجتمعات الجزائرية، حيث أثبتت الدراسات أن انتشار الإدمان يتزايد في الفئات التي تعاني من ضعف الدعم الاجتماعي وهشاشة الروابط المجتمعية (جدي، بوزرق، 2024)

علاوة على ذلك، توضح النظرية أن الإدمان هو مؤشر على اختلال العلاقات بين الفرد والبنى الاجتماعية الأكبر، بما يعكس قصور المجتمع في توفير وسائل تحقيق الأهداف الثقافية بطريقة متوازنة

وعادلة، وهذا التحليل يسمح بفهم الإدمان كنتاج تفاعلي بين الفرد والمجتمع، حيث تصبح المخدرات وسيلة لإعادة التوازن النفسي والاجتماعي في غياب الضوابط الفاعلة.

2.2 نظرية التعلم الاجتماعي

تعتبر نظرية التعلم الاجتماعي من النظريات الرائدة في تفسير طرائق اكتساب السلوك والتعلم، وعلى اعتبار أن الإدمان سلوكا اجتماعيا مكتسبا اجتماعيا لا فطريا، ويتشكل من خلال التفاعل بين الفرد وبيئته الاجتماعية، لا من خلال عوامل بيولوجية أو نفسية فقط، وقد أسس ألبرت باندورا هذا الإطار النظري ضمن ما يعرف اليوم بالنظرية المعرفية الاجتماعية، إذ يرى أن السلوك لا يتشكل في فراغ بل في سياق علاقات متبادلة بين العوامل الشخصية، البيئة، والسلوك ذاته (التحديد التبادلي)، وهو ما يعني أن الأفراد يتعلمون عبر الملاحظة والتقليد، وملاحظة العواقب الناتجة عن تلك السلوكيات داخل بيئاتهم الاجتماعية قبل أن يقوموا بتكرارها أو تثبيتها (Social Learning Theory, 2025)

ففي إطار الإدمان، تعد هذه النظرية أكثر واقعية وتكاملا من النظريات التي تركز فقط على المتغيرات الفردية أو العصبية، لأنها تعالج كيفية اكتساب السلوك الإدماني عبر التعرض الاجتماعي والملاحظة، بمعنى آخر يصبح التعاطي سلوكا يتعلم عندما يكون الشخص محيطة بنماذج سلوكية في بيئته الاجتماعية كأفراد الأسرة، الأقران أو الجماعات الذين يمارسون هذا السلوك أو يظهرون سلوكيات متكررة تجاه المخدرات، وبالتالي يعملون كنماذج يحتذى بها ضمن تلك الجماعات المرجعية، وتؤكد الدراسات السوسيولوجية أن السلوك الإدماني يتشكل عبر عملية تفاعل اجتماعي مستمرة، فالأفراد لا يتعلمون السلوكيات فقط عن طريق التجربة الذاتية، بل أيضا عن طريق مراقبة الآخرين وتقليدهم، إذ أن رؤية تداعيات السلوك على الآخرين سواء كانت مكافآت أو عواقب يساهم في تعزيز احتمالية تكراره، حيث أن التعاطي والإدمان ليسا سلوكا فطريا بحتا، بل هما سلوكيات متعلمة من الجماعات المرجعية مثل الأسرة والأصدقاء والمحيط الاجتماعي، حيث يبدأ التعاطي غالبا كتجربة ناجمة عن تأثير الأقران أو العائلة، ثم تتسرب هذه الممارسات إلى الفرد عبر المراقبة والتقليد والتعزيز الاجتماعي السلبي أو الإيجابي (سارة خلفه، سارة تيتيلة، 2021)

فالعلاقات الاجتماعية، الأعراف الجماعية، وأنماط التفاعل تعمل كمسارات تعلم فعالة يمكن أن تقوي أو تضعف سلوكيات المخدرات لدى الأفراد، وقد يتم تعزيزها أو تثبيطها وفقا لطبيعة الدعم أو الرفض الاجتماعي الذي يفعله المجتمع تجاه هذه السلوكيات، ويمكن فهم ذلك من خلال نموذج متعدد المستويات يظهر كيف تؤثر العائلة والأقران في احتمالات التعاطي والإدمان، فقد اقترح "سيمون واخرون" نموذجا يبرز دور الأسرة والأصدقاء في التعلم النسقي لسلوكيات المخدرات لدى

المراهقين، حيث يمكن لهذه التأثيرات أن تصعد أو تثبط الانخراط في تعاطي المواد بحسب درجة الاندماج الاجتماعي والدعم أو الضغط الذي يتعرض له الفرد (Simons, Conger & Whitbeck, 1993) ومن نافلة القول أن نظرية التعلم الاجتماعي تقدم إطارا تحليليا قويا لفهم السلوك الإدماني كنتاج لتفاعلات اجتماعية معقدة، بدلا من رؤيته كنتيجة فردية أو بيولوجية فقط، وهي توفر أساسا نظريا لتفسير التكرار والاستدامة في السلوك الإدماني، حيث تمكن من التركيز على السياقات الاجتماعية التي يتم من خلالها تعلم وتثبيت السلوكيات الإدمانية، ما يجعل التدخلات الوقائية والعلاجية أكثر فعالية عند استهداف العلاقات الاجتماعية والبيئات المتعلمة وليس فقط الفرد المعزول.

3.2 نظرية الوصم الاجتماعي

تقدم نظرية الوصم الاجتماعي "لهوارد بيكر" "وايدوين ليمرت" بديلا تحليليا لتفسير دوافع الانحراف وتنطلق من تساءل عميق حول كيف يساهم المجتمع في خلق الانحراف عبر تسميات وسمات تلصق بالأفراد الذين يقومون بسلوكيات معينة، بما في ذلك تعاطي المخدرات والإدمان، ووفقا لهذه النظرية، فلانحراف يتم إنتاجه عبر ردود أفعال المجتمع تجاه السلوك، ما يعني أن الوصم الاجتماعي، الذي يلصق الأفراد بألقاب مثل المدمن أو المنحرف، فهو نتاج لعملية اجتماعية تحددها المعايير الثقافية وقواعد القوة في المجتمع.

لقد قسم ليمرت الانحراف إلى انحراف أولي وآخر ثانوي، فالانحراف الأولي هو السلوك الذي يخالف القواعد لكنه لا يؤدي إلى وصم الشخص كمنحرف أو إدماني في البداية، وقد يظل مجرد حدث معزول في السجل الاجتماعي للفرد، أما الانحراف الثانوي هو الخطوة التي يتخذها الفرد بعد أن يتم توصيفه من قبل الآخرين كمنحرف أو مدمن، فيبدأ هو نفسه في تبني هذا التصنيف كجزء من هويته، فيزداد تعميقا في السلوك الموصوم ويعزز من استمرار التعاطي أو الإدمان بذريعة أن المجتمع قد وضع عليه علامة لا مفر منها، هذا التحول من سلوك أولي إلى هوية منحرفة هو أساس النظرية، حيث يصبح التصنيف الاجتماعي عملية تحول اجتماعي للشخص أكثر من كونه مجرد تقييم سلوكي عادي.

وحين يتم استخدام هذه النظرية في دراسة سلوك التعاطي والإدمان على المخدرات، يتبين أن ما يجعل سلوك التعاطي يعامل كشذوذ اجتماعي أو انحراف هو كيف يراه المجتمع ويصنفه، فالتسمية بمدمن مخدرات أو متعاطي لا تعتبر مجرد وصف، وإنما تصنيف اجتماعي يعزز الوصم الاجتماعي ويدفع الفرد إلى تطوير هوية تتوافق مع ذلك التصنيف، مما يساهم في استدامة السلوك الإدماني بدلا من مواجهته.

كما أن الوصم الاجتماعي تجاه المدمنين في بعض البيئات يؤدي إلى استبعادهم اجتماعياً وتقليل فرصهم في التعافي، هذه المسألة تلعب دوراً في جعل الفرد أكثر انغماساً في الإدمان بدلاً من تحفيزه على العلاج وملاقة المجتمع دون تلك العلامة السلبية، وهو ما يعزز حالة العزلة والنبذ الاجتماعي لهذه الفئة، ويجعل من الصعب عليها الخروج من دائرة الإدمان أو الحصول على دعم اجتماعي ملائم. (حجام العربي، عيشور سهام، 2025)

ومن ناحية أخرى يمكن النظر إلى الانحراف في طريقة المجتمع في قراءة والحكم على الفعل وكيف يخلق وصمة مرتبطة به خاصة في فهم العواقب الاجتماعية والنفسية للوصم على الهوية الذاتية والسلوك المستقبلي للأفراد الذين ينظر إليهم كمدمنين.

4.2 نظرية السياق الاجتماعي الثقافي

تعد نظرية السياق الاجتماعي الثقافي من أبرز التوجهات المعاصرة في علم الاجتماع لفهم التعاطي والإدمان، فقد ركز كل من "فان تريولي" و"Ventruelli" و"فلاكستاين" و"Fleckenstein" على العلاقة الديناميكية بين الفرد والبيئة الاجتماعية والثقافية المحيطة به، بحيث ينظر إلى التعاطي والإدمان على تفاعل بين الفرد والبيئة الاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها (Hanson, Ventruelli, & Fleckenstein, 2015).

ذلك أن السلوك الإدماني يتشكل داخل شبكات اجتماعية، جماعات مرجعية، والعلاقات الأسرية والمدرسية هي التي تحدد المعايير والقيم ما هو مقبول وما يعتبر منحرفاً، فالثقافة ميدان ديناميكي ينتج معنى التعاطي والمخدرات، فقيم المجتمع، المعتقدات، العادات، وحتى التمثيلات الإعلامية للمخاطر هي من تحدد كيفية إدراك الفرد للمخدرات ومدى خطورتها، وبالتالي تؤثر في انتشار التعاطي وتحولاته نحو الإدمان (مفتاح، حسن، 2016).

لقد أفضى هذا الترابط والشبكة الثقافية والإعلامية المصاحبة، إلى تباين أنماط الاستهلاك بين فئات مختلفة داخل المجتمع، بحسب مدى تقبل الثقافة المحلية أو تضاربها مع القيم الحديثة، فالسلوك الإدماني يتأثر بتفاعلات متبادلة بين الفرد والجماعة، أي أن البيئة الاجتماعية تشجع أو تثبط السلوك الإدماني، والفرد بدوره يعيد إنتاج هذه البيئة عبر ممارساته. (Bandura, 1977)

ففي سياق المجتمع الجزائري، فإن ضغوط الانفتاح الثقافي والتحولات الرقمية تخلق بيئات جديدة للتجريب والتعاطي، بينما القيم التقليدية قد تنتج وصمة أو ضغطاً للامتناع، وتمثل الأسرة، المدرسة، والجماعات الدينية والمؤسسات الاجتماعية آليات ضبط تؤثر في نشوء السلوك الإدماني أو الحد منه،

ذلك أن غياب الرقابة الأسرية أو ضعف الدعم الاجتماعي يزيد من احتمال انجراف الشباب نحو التعاطي، ويحول التجربة التجريبية إلى إدمان قهري.

لقد حاولت هذه النظرية أن تبين كيف تساهم التحولات الثقافية والقيمية، الوسائل الرقمية، والضغوط الاقتصادية والاجتماعية في تكييف معنى المخدرات داخل المجتمع، ما يؤدي أحيانا إلى تصاعد حالات الإدمان، كما ساعدت في فهم تفاوت انتشار الإدمان بين الفئات المختلفة، خاصة بين الشباب، تبعا لمستوى الانفتاح الثقافي، قوة الضوابط الاجتماعية، والتمثيلات المجتمعية للمخاطر.

ثالثا: تحولات المعنى الاجتماعي للتعاطي والادمان

يشكل المعنى الاجتماعي للتعاطي أحد المفاتيح التحليلية المركزية في السوسيولوجيا المعاصرة لفهم ظاهرة الادمان، حيث لا ينظر إلى التعاطي بوصفه فعلا ماديا معزولا، بل باعتباره ممارسة اجتماعية محملة بدلالات رمزية تتغير بتغير السياق الثقافي والتاريخي والاجتماعي، فالمخدرات لا تمتلك معنى ثابتا في ذاتها وإنما يكتسب التعاطي دلالاته من خلال الخطابات الاجتماعية السائدة والقيم الثقافية وأنماط التفاعل داخل الجماعات المرجعية، ففي المجتمعات التقليدية أو في المراحل الأولى من انتشار بعض المواد ذات التأثير العقلي، كان التعاطي في كثير من السياقات يرتبط بمعاني اللذة والاحتفال والاندماج الجماعي.

وهو ما اشارت إليه دراسات تاريخية وسوسيولوجية أن بعض المواد المخدرة أو المنهية استخدمت ضمن طقوس جماعية أو مناسبات اجتماعية أو ممارسات ثقافية مشروعة نسبيا، حيث كان التعاطي وسيلة لتعزيز الروابط الاجتماعية والشعور بالانتماء للجماعة. (Becker, 1963) في هذا الإطار، ينظر إلى التعاطي كفاعل اجتماعي منظم تحكمه قواعد غير مكتوبة تضبط وتيرة الاستهلاك وسياقاته.

غير أن هذا المعنى بدأ يشهد تحولا تدريجيا مع تعقد البنى الاجتماعية، وصعود الدولة الحديثة، وتوسع الخطابات الطبية والقانونية، فقد ساهمت عمليات التقنين والتجريم إلى جانب بروز المؤسسات الصحية والنفسية، في إعادة تعريف التعاطي بوصفه خطرا اجتماعيا وتهديدا للنظام العام، فالمعرفة الطبية لا تعمل فقط على تشخيص السلوك، بل تسهم في إنتاج خطاب معياري يعيد تصنيف الأفراد والممارسات. (Foucault, 1976)، وهذا المعنى انتقل التعاطي من كونه ممارسة اجتماعية لها وظائف رمزية إلى كونه مشكلة صحية وأمنية تستدعي الضبط والمراقبة، ومع التحولات الاقتصادية والثقافية المتسارعة، أخذ المعنى الاجتماعي للتعاطي منحى أكثر تعقيدا، فلم يعد التعاطي مرتبطا فقط باللذة أو الاندماج، بل أصبح في كثير من الحالات تعبيرا عن الهروب من الضغوط الاجتماعية والقلق الوجودي والهشاشة النفسية الناتجة عن البطالة والتمهيش وتفكك الروابط الاجتماعية، ويشير دوركايم إلى أن

ضعف الضبط الاجتماعي وحالة الانومي تخلق ظروفًا مواتية للسلوكيات الانحرافية ومنها التعاطي، بوصفها آليات فردية للتكيف مع اختلال المعايير (Durkheim, 1897/2002)، في هذا السياق، يتحول التعاطي إلى استراتيجية هروب رمزية من واقع اجتماعي مأزوم، بدل كونه فعلاً جماعياً يعزز الانتماء. كما تلعب الثقافة الاستهلاكية والإعلام دوراً محورياً في إعادة إنتاج معاني جديدة للتعاطي، فبعض الخطابات الإعلامية والفنية قد تضفي على التعاطي صورة رومانسية أو تمردية، خاصة في أوساط الشباب، حيث يتم ربطه بالحرية الفردية وكسر القيود الاجتماعية، إلا أن هذا المعنى غالباً ما يصطدم بخطاب مضاد قوي يصدر عن المؤسسات الرسمية والدينية، يركز على المخاطر الصحية والانحراف الأخلاقي، هذا التناقض في الخطابات يسهم في خلق معنى مزدوج للتعاطي، يتأرجح بين الإغراء والوصم، ويؤدي في كثير من الحالات إلى إرباك الفرد وتعميق أزمته النفسية والاجتماعية.

من زاوية نظرية الوصم، يكتسب هذا التحول دلالة خاصة، إذ يؤكد "بيكر" أن الانحراف لا يكمن في الفعل ذاته، بل في رد فعل المجتمع تجاهه (Becker, 1963)، فحين يعاد تعريف المتعاطي باعتباره منحرفاً أو مريضاً أو خطراً اجتماعياً، يتم تحميله هوية سلبية تلازمه، وقد تدفعه إلى مزيد من الانغماس في التعاطي والإدمان، هنا يتحول التعاطي من تجربة عابرة إلى مسار اجتماعي مغلق، تهيمن عليه الوصمة والاقصاء، فالوصم الاجتماعي يعد من أبرز العوامل المعيقة للعلاج وإعادة الإدماج (مفتاح، حسن، 2016).

في المجتمعات العربية ومنها المجتمع الجزائري، تتسم تحولات المعنى الاجتماعي للتعاطي بخصوصية ثقافية واضحة، فالتعارض بين القيم الدينية المحافظة والتحويلات الاجتماعية الحديثة يولد نظرة شديدة السلبية تجاه المتعاطي، حيث لا ينظر إليه فقط كمريض أو محتاج للدعم، بل كمنحرف أخلاقياً، هذا التمثيل الاجتماعي الصارم يسهم في تعميق العزلة الاجتماعية للمتعاطين، ويدفع الكثير منهم إلى ممارسة التعاطي في الخفاء، مما يزيد من مخاطر التحول إلى الإدمان، "فالمدمن ليس معزولاً فقط من منظور فردي، بل يواجه وصمة اجتماعية قوية تجعله موصوم ومميز عن غيره داخل المجتمع، وهو ما يمكن أن يؤثر في تكيفه النفسي والاجتماعي واستمرار سلوكه الإدماني (ابن السايح، 2018)

يمكن القول إن تحولات المعنى الاجتماعي للتعاطي تعكس تحولات أعمق في بنية المجتمع نفسه. فكلما ضعفت شبكات الدعم الاجتماعي، وتآكلت الروابط التضامنية، وتحولت القيم نحو الفردانية، أصبح التعاطي أكثر ارتباطاً بالهروب والانسحاب، وأقل ارتباطاً بالاندماج واللذة الجماعية، وعليه فإن فهم

الإدمان لا يكتمل دون تحليل هذه التحولات الرمزية والمعنوية، التي تفسر لماذا يتحول التعاطي من ممارسة اجتماعية محدودة إلى مشكلة بنيوية تهدد تماسك المجتمع.

رابعاً: تحولات السلوك من الممارسة إلى الانحراف

يمثل السلوك المرتبط بالتعاطي مرحلة أولية داخل مسار اجتماعي أوسع قد ينتهي بالإدمان، ولا يمكن فهمه إلا من خلال تحليل تحولات الضبط الاجتماعي الذي يحيط بالفعل، ففي المراحل الأولى يخضع التعاطي لجملة من الضوابط غير الرسمية التي تمارسها الأسرة والجماعة والمؤسسات التربوية، حيث تعمل هذه الأطر على تحديد ما هو مقبول وما هو مرفوض اجتماعياً، غير أن التحولات الاجتماعية المتسارعة خاصة في المجتمعات التي تشهد تفككا في الروابط التقليدية وتراجعا في فعالية مؤسسات التنشئة الاجتماعية، تؤدي إلى إضعاف هذه الآليات الضبطية، ما يفتح المجال أمام السلوك ليخرج تدريجياً من دائرة الرقابة الاجتماعية (مفتاح، حسن، 2016).

إن فقدان الضبط الاجتماعي لا يحدث دفعة واحدة وإنما يتم بشكل تدريجي حيث تبدأ الممارسات المرتبطة بالتعاطي في الانفصال عن المرجعيات القيمية الجماعية، ويصبح الفرد أقل استجابة للرقابة الاجتماعية وأكثر خضوعاً لضغوط فردية ونفسية، فضعف الروابط الأسرية وغياب التوجيه القيمي وتراجع الإحساس بالانتماء الاجتماعي، تمثل عوامل بنيوية تساهم في انتقال التعاطي من سلوك محدود إلى ممارسة متكررة (جدي ، بورزق، 2024)، ويعكس هذا التحول خلافاً في العلاقة بين الفرد والبنية الاجتماعية التي لم تعد قادرة على احتواء السلوك أو إعادة توجيهه، ومع تكرار الفعل ينتقل التعاطي من كونه ممارسة ظرفية أو تجريبية إلى نمط سلوكي دائم، فالتكرار يدل على تحول في وظيفة السلوك ذاته، حيث يصبح وسيلة للتكيف مع الضغوط الاجتماعية والنفسية، في هذه المرحلة يفقد الفعل طابعه الاختياري ويكتسب بعداً قهرياً، ما يعني أن الفرد لم يعد قادراً على التحكم في سلوكه رغم إدراكه لآثاره السلبية، وفي هذا الإطار فإن التحول يرتبط بتغير موقع السلوك داخل حياة الفرد اليومية، إذ يصبح التعاطي مركزياً في تنظيم الزمن والعلاقات والاختيارات (Piazza & Deroche, 2013).

ولا يمكن فهم القهر السلوكي بمعزل عن السياق الاجتماعي، لأن البيئة الاجتماعية تساهم في تعزيز السلوك من خلال آليات التعلم والتطبيع، فالجماعات المرجعية خاصة جماعات الرفاق، تلعب دوراً محورياً في تثبيت التعاطي عبر توفير شرعية اجتماعية له، مما يقلل من الشعور بالذنب أو الانحراف في المراحل الأولى ومع استمرار التكرار، تتحول هذه الشرعية المؤقتة إلى عامل يعمق العزلة الاجتماعية،

حيث يبدأ المجتمع الأوسع في إعادة تصنيف السلوك بوصفه منحرفاً، وهو ما يخلق توتراً جديداً بين الفرد والمعايير السائدة.

فراة القول أنه لا يمكن اعتبار الإدمان قطيعة فجائية مع الوضع الاجتماعي السابق، وإنما هو مسار انحرافي تدريجي يتشكل عبر مراحل متراكمة، هذا المسار يبدأ بتعاطي عابر ثم استخدام منتظم ثم اعتماد نفسي، لينتهي في كثير من الحالات إلى اعتماد قهري يفقد فيه الفرد قدرته على التحكم في سلوكه، وهو ما يعكس تحولات عميقة في تمثيلات الفرد لذاته ولموقعه الاجتماعي، حيث يعاد تشكيل هويته تدريجياً من فاعل اجتماعي عادي إلى شخص موصوم اجتماعياً. (Becker, 1963)

وتبرز هنا أهمية التفاعل الاجتماعي في إنتاج الانحراف، إذ نتيجة لعملية اجتماعية يتم فيها تصنيف السلوك والصاق تسميات به، فالتسمية الاجتماعية تلعب دوراً حاسماً في تثبيت المسار الانحرافي، لأنها تؤثر في تصور الفرد لذاته وفي علاقته بالمجتمع، ومع تزايد الوصم الاجتماعي تقل فرص الاندماج الاجتماعي، ما يدفع الفرد إلى إعادة تنظيم سلوكه داخل دوائر هامشية، يكون فيها الإدمان جزءاً من نمط حياة منحرف اجتماعياً.

وعليه، فإن فهم الإدمان كسلوك انحرافي يقتضي النظر إليه بوصفه نتيجة لتفاعل معقد بين ضعف الضبط الاجتماعي، تكرار الفعل والتحولات في التمثيلات الاجتماعية والمعايير الثقافية، هذا الفهم السوسيولوجي يسمح بتجاوز التفسيرات الاختزالية التي تحصر الإدمان في أبعاده البيولوجية أو النفسية، ويؤكد على ضرورة مقارنته كظاهرة اجتماعية تتطلب معالجة بنيوية وثقافية إلى جانب التدخلات العلاجية.

خامساً. المقاربة الوقائية والاجتماعية لظاهرة الإدمان

إن الوقاية من الإدمان في السياق الجزائري لا يمكن أن تحقق أهدافها ما لم تركز على فهم الخصوصية الثقافية للمجتمع، فالسلوك الإدماني غالباً ما يكون صرخة احتجاج اجتماعي أو محاولة للهروب من ضغوطات هيكلية، وتلعب الأسرة ومؤسسات التنشئة الاجتماعية دوراً محورياً في بناء المناعة الاجتماعية ضد الإدمان، ذلك أن ضعف الروابط الأسرية واهتزاز المنظومة القيمية يمثلان بيئة خصبة للتعاطي (بوزيد، 2020)، مما يستدعي ضرورة مراعاة برامج الوقاية التي تحدد استراتيجيات تعزز الهوية والانتماء كخط دفاع أول ضد الانحراف، فقد سادت لفترة طويلة الرؤية التي تعتبر المدمن مجرماً يستحق العقاب الزجري إلا أن الفشل الذريع لهذه المقاربة في الحد من التعود أدى إلى بروز ضرورة تبني استراتيجيات شمولية، كما أن تغليب الجانب الزجري يؤدي غالباً إلى وصم المدمن اجتماعياً، مما يعيق عملية شفائه ويدفعه نحو العزلة أو الانخراط في جماعات إجرامية أكثر خطورة

(تواتي، 2021)، وهو ما يقتضي تكامل الأدوار بين القطاع الصحي والعلاج الطبي والقطاع الاجتماعي و المرافقة النفسية، والقطاع الاقتصادي بتوفير فرص الشغل، فالهدف ليس فقط التوقف عن التعاطي، بل استعادة الفرد لقيمه الإنسانية ودوره الوظيفي (Khiati, 2015).

في الجزائر مثلاً غالباً ما ترتبط عملية التعاطي والامان بجماعة الأقران والبحث عن القبول الاجتماعي أو تخفيف حدة القلق الناجم عن الانتظار الاجتماعي كالبطالة وتأخر الزواج، وهنا يتحول السلوك من اختيار إرادي إلى ضرورة حيوية، حيث تتداخل العوامل البيولوجية والنفسية لتثبيت حالة الإدمان، مما يستوجب تدخلاً طبياً ونفسياً مكثفاً يتجاوز مجرد النصيح والإرشاد منها:

❖ تعزيز اليات الاندماج التي تتضمن توفير مراكز استقبال وتوجيه، برامج إعادة التأهيل المهني.

❖ دعم الأسر لاحتواء أبنائها المدمنين بدلاً من طردهم.

❖ الحد من الانحراف من خلال فهم الأبعاد المتعددة له.

في الجزائر نجد أن التهميش هو المحرك الأساسي لذا، فإن منظمات المجتمع المدني الهيئات المشرفة على الشباب وغيرها مطالبة بتقديم برامج وسياسات رشيدة تعمل على تحسين الفضاءات الشبابية، وتطوير الرياضة المدرسية والجامعية وتعد أدوات وقائية فاعلة (بوقفة، 2018) لبناء مجتمع محصن، حيث يتحول المتعاطي بعد ذلك من عبء أمني إلى طاقة بشرية مستعادة ومدمجة في مسار التنمية.

خاتمة

يعد التعاطي والإدمان على المخدرات ظاهرة اجتماعية وثقافية معقدة تنشأ وتتصاعد في سياق تفاعلي بين الفرد والمجتمع، فالتحول من التعاطي إلى الإدمان يعكس ديناميات متشابكة تشمل العوامل البنيوية مثل الأسرة والجماعة والمؤسسات الاجتماعية، والعوامل الثقافية مثل القيم المشتركة، تمثيلات المخاطر، والتأثيرات الإعلامية، حيث تعمل هذه العناصر جميعها على إعادة تشكيل معنى السلوك الإدماني وتحديد مدى مقبولية الفرد اجتماعياً.

إن التحليل السوسيولوجي أوضح أن الإدمان مسار تدريجي من ممارسة قابلة للتطبيع إلى اعتماد قهري، تتفاعل فيه النظريات الاجتماعية المختلفة، من اللامعيارية التي تبرز الاختلال بين القيم والأهداف المجتمعية، إلى التعلم الاجتماعي الذي يوضح كيف يكتسب الفرد السلوك عبر التفاعل مع الجماعات المرجعية، وصولاً إلى الوصم الاجتماعي الذي يعيد إنتاج الانحراف ويؤثر في هوية الفرد وسلوكه المستقبلي، هذا الفهم المتكامل يبرز أن معنى التعاطي والسلوك الإدماني يتغيران بحسب السياق الاجتماعي والثقافي، وأن الإدمان في حد ذاته مرآة للتحويلات المجتمعية والثقافية التي يعيشها المجتمع.

وعلى هذا الأساس، يصبح التعامل مع الإدمان أكثر فاعلية عندما يشمل الوقاية والتوعية الأسرية والمجتمعية، البرامج الثقافية والتعليمية، الدعم المؤسسي للعلاج وإعادة الدمج، واستثمار الإعلام الرقمي كأداة للتوجيه الاجتماعي، وعليه فإن التحليل السوسيولوجي للإدمان يسمح بإعادة النظر في الاستراتيجيات التقليدية للحد من انتشاره، ويفتح المجال لبناء مجتمع أكثر وعياً وصحة، حيث تصبح الوقاية والفهم الاجتماعي جزءاً من الاستجابة المستدامة للظاهرة.

قائمة المراجع

1. بن السايح، م. (2018). الوصم الاجتماعي لدى عينة من المدمنين. *دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية*، 18(2)، 155-171.
2. بن دينية، ج.، وبن شرقي، ع. ا. (2023). ظاهرة تعاطي المخدرات في المجتمع الجزائري بين فوبيا الأسرة والأمن الاجتماعي. *مجلة رفوف*، 11 المجلد 11، العدد 1، ص 745-759.
3. بوزيد، نبيلة. (2020). المقاربة السوسيو-ثقافية لظاهرة الإدمان في المجتمع الجزائري: من التعاطي إلى الانحراف. *مجلة آفاق علمية*، المجلد 12، العدد 2، 45-62.
4. بوقفة، عبد الهادي. (2018). *سوسيولوجيا الانحراف: دراسة في آليات الضبط الاجتماعي والوقاية في الجزائر*. الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
5. تواتي، نظيرة. (2021). السياسة الجنائية المعاصرة وتحديات الإدمان في الجزائر: من الردع إلى الرعاية الاجتماعية. *مجلة الدراسات الحقوقية*، المجلد 8، العدد 1، 112-130.
6. جدي، فؤاد بوزرق. (2024). تحليل سوسيولوجي لظاهرة الإدمان على المخدرات وفق منظور علم الاجتماع الانحراف والجريمة نظرية اللامعيارية أنموذجا. *مجلة دفاتر المخبر*، المجلد 19، العدد 1، 74-90.
7. حجاج، عبد الغني. (2021). السلوك الانحرافي لدى الشباب في الجزائر: دراسة سوسيولوجية في عوامل التعاطي وسياقات الاندماج. *مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية*، المجلد 9، العدد 2، 145-162.
8. حجام، العربي، عيشور، سهام. (2025). وصم إدمان المخدرات عند الشباب في المدن الجزائرية. *مجلة التميز الفكري للعلوم الاجتماعية والإنسانية*، المجلد 6، العدد 2، 10-22.
9. حمري، آمال. (2019). المقاربة السوسيولوجية لظاهرة الإدمان في المجتمع الجزائري: بين الوصم الاجتماعي وتحديات إعادة الإدماج. *مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية*، المجلد 7، العدد 1، 120-138.
10. خلفه، سارة، وتيتيلة، سارة. (2021). ظاهرة الإدمان على المخدرات: بين الدوافع والأطر النظرية المفسرة لها. *مجلة التميز الفكري للعلوم الاجتماعية والإنسانية*، المجلد 6، العدد 3، 67-80.
11. دريوش، وداد. (2022). العلاقة بين التنشئة الأسرية وسلوك العنف لدى الأبناء. *مجلة دراسات إنسانية واجتماعية*، المجلد 11، العدد 3، 361-376.
12. شاورة، بوروب. (1994). البعد الاجتماعي لظاهرة الإدمان على المخدرات في الجزائر. *مجلة دراسات نفسية وتربوية*، المجلد 10، العدد 1، 23-28.
13. عمر، أحمد مختار. (2008). *معجم اللغة العربية المعاصرة*. القاهرة، مصر: عالم الكتب.

14. كريم، ج. (2022). التناول السوسيولوجي لظاهرة تعاطي وإدمان المخدرات لدى الأوساط الشبابية. *مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية*، المجلد 7، العدد 2، 545-558.
15. مجمع اللغة العربية. (2000). *المعجم الوسيط (ط. 3)*. القاهرة، مصر: مكتبة الشروق الدولية.
16. مفتاح، حسن. (2016). قراءة سوسيولوجية لظاهرة الإدمان على المخدرات والمؤثرات العقلية. *مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية*، المجلد 4، العدد 8، 197-218.
17. Bandura, A. (1977). *Social Learning Theory*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall.
18. Becker, H. S. (1963). *Outsiders: Studies in the sociology of deviance*. New York: Free Press.
19. Durkheim, É. (1897). *Le Suicide: Étude de sociologie*. Paris: Alcan.
20. Durkheim, É. (2002). *Suicide: A study in sociology* (J. A. Spaulding & G. Simpson, Trans.). London: Routledge. (Original work published 1897).
21. Encyclopedia of Social Learning Theory. (2025). *Social learning theory*. Retrieved from Wikipedia.
22. Hanson, G. R., Ventruelli, M., & Fleckenstein, A. (2015). Social context and physical environment theories in substance use. *Social Sci LibreTexts*.
23. Khiati, M. (2015). *Les addictions en Algérie: État des lieux et perspectives de prise en charge*. Alger: Editions l'ANEP.
24. Merton, R. K. (1938). Social Structure and Anomie. *American Sociological Review*, 3(5), 672-682.
25. Nefidsa, S., & Boutaani, S. (2021). The social dynamics of addiction in Algerian society: From peer influence to social exclusion. *Journal of Human and Social Sciences*, 12(3), 89-